المحصول.

قال الفقير لأولاده: صلّوا إلى الله كي يتوقّف المطر، فهو يجعل الغرفة ترشح فوقنا بشدّة.

٨ ـ مناضل

قال المحقّق: تعترف بأنّك توزّع المنشورات، وبأنّك رئيس خليّة ودبّور فحل، وبأنّك أنت الّذي قمت بكتابة الأوراق الّتي وجدت مع المتهمين. ومع هذا كلّه تقول بأنّك أميّ لا تجيد القراءة أو الكتابة.

دمشق / ٣/ ١٩٩٤

القطّة الغارقة في النعاس

نبيل نعوم

بدا على وجهها الإرهاق، وظهرت التّجاعيد الهيّنة حول العينين والفم.

«لم أنم لعدّة ليال». قالت ساندي لبرت حين وصولها، مازالت ساخطة على نفسها، وعلى عذابها بسبب هجر مراد لها. كيف ارتبطت به كلّ هذا الارتباط؟ كيف عاشت وَهْمَ استمرار علاقتهما؟ مراد الّذي ظنّته أحد العابرين على سكّتها، أحد الذين لم يتوقّفوا عن عرض أنفسهم عليها في كلّ ليلة. وهي المثقّفة الثّوريّة التي رحلت بين جامعات العالم تُدرِّس التاريخ السّياسي، كيف صارت حياتها متوقّفة عليه؟ لا تكاد تصدق نفسها، ولكنّها تصدّق جسدها الذي عشقه. يلفت نظرها في أوّل الأمر بتحمّسه للنّظريات الاشتراكية التي تبدّلت، وظلّت بواكير تنظيراتها عالقة برؤوس أجيال متلاحقة في دول العالم الثّالث. بل ألم يُثِرْها هذا المَزْج بين البراءة والمثاليّة المتحجّرة؟ ثمّ، ثمّ فجأة، قرّر الزّواج من مصرية. ومن مَنْ؟ من فتاة لا تمثّل بالنّسبة لها سوى التفاهة. تعرفها خلال دوائر العلاقات المتشابكة. كثيرة الكلام فيما لا تعرف. فخورة ببعض الملاحة التي لا تقارن بجمالها هي، أو حتّى بكثيرات من المصريات الأخريات. اسمها دوللي. يا له من اسم لمصرية! فجأة يقرّر الزّواج، وقطع علاقته بها. وها هو شهر يمرّ دون رؤيته، فقد رحل مع زوجته لقضاء شهر العسل.

في البداية ظنّت أنّ ألمها سببه الغيرة، أو الخسارة، أو المنافسة، أو الصدمة، أو الكبرياء، ولكنّها، وبمرور الأيّام، اكتشفت أنّه بسبب حرمان جسدها منه.

ولإحساسها بالحاجة للكلام مع صديق يفهمها، فَقَدْ قرّرت زيارة برت الذي يدرِّس معها بالجامعة الأمريكية. وإن كان من أقلّ الذين بإمكانهم مساعدتها، فهو، وحسب الصورة المعروفة عنه، قد ملّ الحياة الاجتماعية، واعتكف مكتفياً بكأسه، وبعض القطط التي وجد في صحبتها تعويضاً عن متاهات العلاقات الإنسانية. إلاّ أنّه يجيد الإصغاء.

عند وصولها سألته أن يفتح بعض النّوافذ، فرائحة الحيوانات ـ بسبب طول معاشرته لها ـ لم يعد بقادر على إدراك مدى قبحها.

لم يكن برت على استعداد لقضاء تلك الأمسية معها، فهو مدرك منذ أن طلبته تليفونياً، أنّ عدة ساعات من وقته ستضيع في الاستماع لقصّة قديمة ومكرّرة. قصّة ليس لها من حلّ سوى النّسيان، أو الانتحار، أو الانغماس في علاقة جديدة. بالطّبع باستبعاد الحلّ الأمثل، وهو الابتعاد عن منبع تكرار الألم. رفض الغول الكامن في بطن كل فرد: الشّبق النّهم للجنس.

أوسع برت لها مكاناً على الأريكة المغطاة بالكتب والمجلاّت والجرائد، والوسائد التي مزّقتها مخالب قططه.

مباشرة، دون تأجيل، فهي عاجزة عن احتمال الألم، سألته إن كان بإمكانها البكاء. نظر إليها وعلى وجهه تعبير، تصوّر أنّه المناسب في مثل هذه المواقف، وأخبرها أنّها تستطيع أن تبكي كما تشاء.

انفجرت ساندي باكية، فهي طوال المدّة السّابقة لم تستغلّ هذه الوسيلة المريحة للتنفيس عن مشاعر ضيقها. لكن شيئاً في نظرته كان مضحكاً. محاولته التّظاهر بالجدّ الذي لا يتّفق مع ملامح وجهه التي تعبِّر عن اللامبالاة. ضاقت عيناه، وزُمَّت شفتاه حتّى كادتا تختفيان. لم يكن برت دميماً، ولكن وجهه كان وجه مهرِّج. لذا انتابتها نوبة ضحك اختلطت بالبكاء، فصارت تضحك وتبكي في آن واحد، وتحوّل المشهد بالنّسبة له إلى أداء رائع، يقارن بأداء كُبريات الممثّلات.

اغتنم برت هذه الفرصة، وتركها ليحضر زجاجة نبيذ وبعض الجبن، فهو لا يطهو. كما أنّ ثلاّجته لا تحتوي عادة سوى أكل القطط.

حين عاد، كانت ساندي قد أوسعت لها مكاناً على الأريكة، وتمدّدت، مغطية وجهها بيديها. بدا أنّها نَسِيَتْه، أو غرقت ثانية في أحزانها وشوقها وغضبها. انتبهت على صوت وضع الأطباق

والزّجاجة على المنضدة. ولأنّها خشيت أن يروّعه التّشويه الّذي حدث بوجهها نتيجة اختلاط الدّموع بالمساحيق، فقد طلبت منه أن يخفّف من إضاءة الحجرة، حتّى لا يراها في هذه الحالة. وحين لاحظت محاولته اليائسة في إيجاد مكان له على أحد المقاعد المشغولة بالقطط، فسحت له مكاناً، وطلبت منه معتذرة أن يجلس إلى جوارها:

«أنا آسفة على إزعاجك يا برت، ولكنّك تعرف أنّك صديقي العزيز. حقيقة أنّنا لا نلتقي كثيراً، ولكنّي واثقة من أنّك الوحيد القادر على مساعدتي. أو على الأصحّ مساندتي في هذا الموقف التّعس الذي وجدت نفسي فيه».

رسم برت ابتسامة على وجهه. صبّ لهما بعض النّبيذ فعادت إليها الضّحكة، خاصّة حين حاول الجلوس دون أن يلمس جسدها المتمدّد على طول الأريكة. ضمّت ساقيها قليلاً لتفسح له مكاناً وسألته:

«برت لِمَ أنا في هذا العذاب؟ أعرف أنّ الأمر كلّه بيدي، ولكن ماذا أصابني؟ لقد خبرت كثيراً من التّجارب من قبل، وأيضاً العنيفة منها. لم أعد صغيرة يا برت لمثل هذه الحكايات الصبيانية. لكنّي عاجزة. عاجزة».

أشعل برت سيجارة، وأخذ يرشف كأسه على مهل متلذّذاً بمذاق نبيذه.

«برت. أنت مثلاً، ألم تحبّ أبداً؟ ألم تمرّ بمثل هذه التّجربة من قبل؟ أخبرني يا برت عن سرّ تماسكك الفريد. لا تقل لي إنّك بابتعادك عن الحفلات والعلاقات قد قضيت على هذه الخاصّية التي نولد بها والمسمّاة بالعاطفة. قل لي يا برت، هل نولد باختلاف في الجوهر؟ هل كلّ هذا العناء بسبب شخصياتنا؟ بسبب حبّنا لأنفسنا؟ بسبب رعبنا من الخسارة؟ أخبرني يا برت، هل بإمكاننا التغلّب على الغيرة والإحساس بالامتهان لترك الآخرين لنا؟ لِمَ أنا حزينة وغبيّة يا برت»؟

وعادت ساندي للبكاء.

قفزت قطّة إلى حجره، بينما حاولت أخرى اختلاس قطعة من الجبن، وحين خشي أن تبعثر الثّالثة أوراقه المتروكة على أحد المقاعد، نهض وقرّر حبْس القطط في حجرة داخلية. ثمّ عاد ومعه فيما يبدو قطته المفضّلة الّتي تلمّست طريقها مرّة أخرى فوق حجره.

كانت ساندي قد تمالكت نفسها، فأخذت كأسها وملأتها ثانية، وجلست تنظر إلى المنضدة. قطّع برت أنواع الجبن المختلفة، واقترح عليها أن تأكل قليلاً. لم تلتفت إلى اقتراحه، واستمرّت في الحديث:

«هذه هي المرّة الأولى منذ أن تركني، منذ أن أخبرني بقراره، بوقاحة غير منتظرة، هذه هي المرة الأولى يا برت التي أبكي فيها، وأُحسّ ببعض الرّاحة».

اعتبر برت ذلك بداية طيّبة. ملأ الكأسين، وتناول قطعة من جبن الماعز المدخّن المصنّع محلّياً، وقد اكتشفه أخيراً في محلّ بقالة قريب من منزله.

عادت ساندي إلى استرخائها. جمعت بعض الوسائد على حافة الأريكة، أسندت رأسها، واسترسلت:

«هي ليست أكثر منّي جمالاً يا برت. أنا متأكّدة. ولا ذكاء. وهو أتعرف ما المشكلة؟ لا تسخر منّي. أنا لست بمراهقة، ولكن، ولكنّنا تواصلنا. لقد وصلنا معاً لدرجات من اللّذة لا يمكن وصفها. كأنّني لم أعرف الجنس من قبل. كان جسدي قبل معرفتي له كالرّمال اليابسة المنتظرة أن تبتلّ. كان كالصّخور الجارحة، ثمّ هذّبتها لمساته. لا تسخر من شاعريّتي. بل من شاعريّته. لقد عرفت قبله الكثيرين، لكنّني لم أحس بمثل هذا الانفتاح الكامل إلاّ معه. لقد عشقت جسده، جسده كلّه يا برت. أن استيقظ في الصّباح إلى جواره. أن يضمّني. مجرّد رؤيته. أهذا هو العته؟ حتى فكرة الضّمان، ضمانه إلى الأبد لم تخطر على بالي من قبله. هل هي رغبتي في إقامة علاقة مستمرّة؟ هل هو ضجري من القفز من فراش لآخر؟ هل هي السّن يا برت؟ أنا مازلت صغيرة. أنت تعرف هذا يا برت. أنا لم أتجاوز الخامسة والثّلاثين بعد. هل هو تبدّل تفكيري بسبب معرفتي به؟ بل دعني أخبرك أنّي لا أريد الزّواج منه، حتّى لو كان طلبني. فهو مختلف عنّي تماماً. هل هو حبّ الامتلاك؟ هل هو إحساس بالفشل تجاه واحد منهم؟ أعني واحد من العالم الثّالث؟ أنا لست نرجسية أو فاشية. أنت تعرف هذا يا برت. أعني هل هم مختلفون عنّا؟ هل هنالك بالفعل ما يسمّى بمنطق العالم الثّالث الذي يصعب علينا فهمه؟ قل لي يا برت. لقد عشتَ بينهم لفترة أطول. لم فعل هذا الشّيء معي؟ لِمَ يتزوّجون دائماً فيما بينهم؟ هل هي محاولة عقابي؟ عقابنا؟ هل هو الانتقام من صورتنا المشوّهة في أعينهم؟ لقد أحببتهم يا برت. كم من دولة نامية عملت فيها، وأحببتهم، وأحببت وسائلهم في معالجة مشاكل حياتهم بطرق وإن كانت ساذجة فهي موائمة لهم. ولكن مراد؟ لِمَ فعلها؟ وبالتّحديد معي. ومن أجل من؟ دوللي؟ بل حتّى إن لم تكن دوللي، كان سيتركني من أجل فتاة مصريّة أخرى. لِمَ يا برت؟ قُل لي. أم نحن المختلفون؟ ما سرّ اختلافنا عنهم؟ ما هو السرّ يا برت؟ قل لي. أجبني. برت. أنا واثقة أنّك تعرف الإجابة. أنا واثقة أنّك الوحيد القادر على مساعدتي. الآن. برتراند. برتي. ما هو سرّ تعاليك؟ ما هو سرّ تفوّقك ما هو سرّ تفوّقنا؟».

انتهت ساندي من كأسها، وصبّت بدورها المزيد من الخمر لهما. كان برت مصغياً لكلّ ما تقول، وقد كست وجهه حمرة باهتة، نقلت لها إحساسه بالدّفء، والتفهُّم. برقّة، ودون أن تغيّر موضعها، اقتربت بقدميها اللّتين تحاشت ملامستهما له من قبل، ووضعتهما فوق حجره، تداعب القطّة التي كانت غارقة في النّعاس.

القاهرة